دَايِتْ

"موت بطيء وانتحار
مؤكد نهايته الحتمية نفق
تخفت فيه الأصوات
والأضواء".

ولاء تلك الفتاة الجميلة, دقيقة الملامح صاحبة الوجه الطفولى البيبى فيس، كما يحب أن يطلق عليها البعض، فلا ينقصها إلا فقدان بعض الكيلوجرامات من وزنها حتى تتمكن من ارتداء فستان مثل سهى ابنة خالتها أو تقود دراجة، كما كانت تحلم منذ أمد بعيد. فشلت كل محاولات أسرتها لإبعادها عن الطعام الذى أضحى لها بمثابة الإدمان و صار إقلاعها عنه فى حكم المستحيل، وإجبارها على القيام بعملية تخسيس بالجراحة أو بالنظام الغذائى دايت صار دربا من دروب الجنون. وأدى ذلك لزيادة وزنها العامين الآخرين بشكل مبالغ فيه، حتى تعدى وزنها مائة وعشرين كيلو جراما، وأصبحت كالجثة الهامدة أسيرة المنزل, رافضة أى شكل من أشكال التواصل الاجتماعى مع الآخرين، حتى الوظيفة، التى استطاع أبوها أن يوفرها لها بأحد البنوك الأجنبية الكبيرة، رفضتها وأصرت على موقفها العجيب من الإفراط فى الطعام، وأضحت ولاء وحيدة أمها و أبيها لغزا كبيرا محيرا لهما ولكل أقاربها ومعارفها.

فلماذا تحولت ذلك التحول؟ لماذا تقوم بذلك؟ ومن أجل من؟

إنه موت بطيء وانتحار مؤكد نهايته الحتمية نفق تخفت فيه الأصوات والأضواء ثم الانتقال للبرزخ ونعش محمول فوق الأعناق وسط أدعية بالرحمة والغفران، وترحم على شباب مضى وانقضى، وتساؤلات لا حصر لها عن السبب المجهول أو الجن المتسرب الذى استطاع التلاعب بعقل ولاء ودفعها دفعا نحو الجنون و الانتحار، لابد من سر، سر لا يعلمه الا الله، و لم تبح به ولو لأقرب الناس لها.

فى هذا اليوم دلفت سهى لغرفة ولاء فى حالة من الحزن و الكآبة مرتدية فستانا أسود ونظارة شمسية، ويبدو عليها الإعياء والإرهاق الشديدين، فقالت سهى مجهشة بالبكاء:

- رباب ماتت يا ولاء (وأعادتها باكية) ماتت.

دون أن تنبس ببنت شفة سقطت ولاء على سرير غرفتها و كأنها بناية تنهار وبدت مصدومة لا تستطيع الحراك وكأنها أصيبت بالشلل التام، حتى الدموع تعجز عن إخراجها، وكأنها تعاندها، وفجأة ودون مقدمات فقدت الوعى تماما و دخلت فى غيبوبة و غرقت فى سبات عميق.

غيبوبة سكر، هكذا نطقها الطبيب، وهو يعدل وضع منظاره الطبى على عينيه. نطق تلك الكلمة ليصيب أسرة ولاء بحسرة جديدة على حال تلك الفتاة الشابة اليافعة التى تقتل نفسها وتنهى حياتها وتدفع الجميع نحو المجهول.

بدأت ولاء تفيق من غيبوبتها لتجد نفسها وحيدة فى غرفتها، وبصوت واهن حاولت أن تنادى باسم سهى، وكررت محاولتها دون جدوى، أمسكت بهاتفها تحاول أن تنظر فى ساعته بعين شبه مغلقة لتجد الساعة قد تجاوزت التاسعة، وأيقنت أن سهى قد غادرت لبيتها، وهنا تعالى صوت ولاء تدريجيا وهى تنادى على أمها التى جاءت بدورها مسرعة وقالت بصوت يملؤه الحزن :

- حمدا لله على سلامتك يا ابنتى.

وجلست بجوار ابنتها على سريرها وطبعت قبلة على جبهتها قبل ان تقول: لقد طمأن الطبيب والدك عليك و،

قاطعتها بهدوء وقالت: أمى لا تدارى أمرى بالله عليك، فلن أبكى وأنوح وأشق الجلباب، وما يخيفنى من مرض مثل السكر واستطردت:

- لا تحزنى يا أمى لا أحد يموت إلا بفراغ أجله.

ردت الأم بحنان:

- أبعد الله شروره عنك حبيبتيى.

فقالت ولاء:

- الموت ليس بشر يا أمى، وإلا ما مات جدى وما ماتت رباب واستطردت بعيون اغرورقت بالدموع:

- ولما مات علاء.

وأكملت حديثها والدموع تفيض من عينيها كفيضان نهر فى موسمه:

- علاء الذى لم يكن له ذنب سوى أنه أحب فتاة تافهة، فتاة لا تعرف إلا المرح واللعب واللهو و السخرية من سائر البشر؛ فتاة مدللة تقضى حياتها بين أحضان التفاهة تارة وبين مروج العبث مرة أخرى. (وأكملت دامعة) والآن ذهبت له من أحبته. أحبته بكل كيانها من كل قلبها، ففضلت سعادته على سعادتها، لم تصارحه بحبها حينما علمت أنه يحبنى، وحاولت أن تتماسك ولكن دون جدوى.

أمسكت بمنديل محاولة مسح دموعها المنهمرة قبل أن تستطرد:

- أحبنى وكان وزنه زائدا، طلبت منه أن يحاول تقليل وزنه ووعدته بأنه كلما قلل من وزنه كلما اقتربت منه أكثر. كان صادق المشاعر فتركته يفعل من أجلى كل شيء، وكلما أحسست بصدقه فى مشاعره وكلما ازداد اجتهادا فى تخفيض وزنه زادنى ذلك عنادا وطمعا فى اللعب بمشاعره، وأصبح ورقة أستخدمها من أجل التقرب لرمزى وإشعال نار غيرته ومحاولة لفت نظره أكثر لي، ولكن هيهات! ففى اليوم الذى اعترفت فيه بحبى لم يكذب رمزى خبرا، وأعلن الخبر على الملأ بأن ولاء التى تبهر الجميع تحبنى وتذوب فى عشقا، وكأنه يريد توصيل رسالة ما وأكمل قائلا: وأنا لن أحقق لها رغبتها، وباختصار لا أحبها و لا أفضل طريقتها فى استخدام وسطاء أو كبارى بلغته وحسب حديثه حينها.

ازداد انهمار دموعها وزادت غزارتها، وشردت لثوانى وكأنها تعيد المشهد برمته أمام عينيها قبل أن تقول: جاءنى علاء فى ذلك اليوم تعلو وجهه نظرة لم أر مثيلها يوما ما، نظرة رجل أهينت كرامته، بل فقط نظر نحوى وانهمرت دموعه تلك الدموع التى تعجز كل كلمات العالم عن وصف ما وصفته.

وكانت تلك هى النظرة الأخيرة، بل والمرة الأخيرة التى رأيت فيها علاء، و لكنها الأولى التى رأيته فيها فى مثل تلك الحالة، وقبل أن أستطيع حتى نطق اسمه، غادر المكان مسرعا هاربا حتى من النظر لوجهي، غادر علاء آخذا قلبى معه، جاعلا منى مسخا دميما حاملا لذنبه ذنب ذلك المحب المطعون غدرا بسكين الحب.

قضى علاء ما تبقى من أيامه وحيدا لا يجيب على أحد من زملائنا رافضا تناول الطعام والشراب، يحاول الانتحار والابتعاد عن زيف الحياة وخداع قاطنيها.

حتى رباب، رحمة الله عليها، رفض مقابلتها، واشتد المرض عليه وجاءته غيبوبة لم يفق منها إلا لبضع دقائق، قابلته فيها رباب التى أكدت لى أنه كان يردد اسمى، وحينما طلبت من رباب أن أزوره كان أمر الله قد نفد وفاضت روحه الطاهرة لبارئها، فكيف لى أن أسامح نفسي؟ كيف أنسى أو أتناسى نظرات أمه المكلومة فى ابنها الوحيد كيف؟

والآن وقد تضاعفت الذنوب بموت رباب؛ فهو نتيجة حتمية لحزنها الشديد على مالك قلبها علاء؛ فقد أصيبت باكتئاب وأدت أدوية الاكتئاب لتدمير صحتها بشكل منقطع النظير، كانت رباب الحبيبة المثالية لحبيب مثالى فى زمن لا مكان فيه للمثالية والمثاليين.

لهذا أسال الله أن يريحنى ويريح ضميري؛ فأنا الآن أحمل ذنب شخصين كانا أبرياء وسط أوغاد.

فقاطعتها الأم:

لاعليك يا ابنتى ادعِ لهما بالرحمة؛ فلكل أجل كتاب.

نظرت لها ولاء قائلة:

- وأنا من تسببت فى هذا و،

فجأة بدون مقدمات انقطع صوت ولاء وغابت عن الوعى وظنت الأم أنها غلبها النعاس، فسحبت الغطاء عليها وقبلت جبينها وجلست تتابعها من على كرسى مجاور لسريرها، وفى داخلها تساؤلات تنمو كالنار فى الهشيم:

هل ولاء ضحية لسوء تربية؟ أم لحرية زائدة؟ أم لتنفيذ لكل رغباتها؟ أم لقلة خبرة؟ أم لافتقاد القدوة؟

وظلت كل تلك التساؤلات تدور فى فلك رأس الأم، وهى تنظر لوحيدتها بشغف وقلق شديدين قبل أن يختلع قلبها حينما سمعت صوت حشرجة ولاء المتقطعة، وكأنها تهم بقول شئ ما أو وداع ما، ثم همدت ولاء تماما ولم تعد أنفاسها تتلاحق، بل لم تعد هناك أنفاس من الأساس.

بعد عامين من وفاتها سمعت أمها طرقات على باب شقتهم هرعت وفتحت باب الشقة، فلم تجد أحدا، وقبل أن تغلق الباب خلفها وجدت دعوة لحضور افتتاح صالة ألعاب وجيمانيزيوم يحمل اسم دايت لمالكه علاء وزوجته رباب.

د. محمود لطفي

obeikan.com